إسلام أبو ذر

غفار قبيلة من قبائل العرب ، كانت تقيم فى سهل من الأرض منبسط ، على الطريق الواضح بين مكة والشام ، وهناك كانت منازلها وخيامها ، ومراعى جمالها ، ومسارح أغنامها ، تتخلله العيون ، وينبت فيه النخيل ، وتمتلىء أرضه بالعشب والكلأ ، ولهذا كان مقاما طيباً ، ومنزلا كريماً لأهل مكة ، حينما كانوا يمرون فى طريقهم للتجارة بالشام ، ذاهبين أو عائدين ، ويمكثون ليلة أو ليلتين ، يريحون أجسامهم المتعبة ، ويسقون دوابهم الظمأى ، ويتزودون بتمر غفار ثم يستأنفون المسير .

وكان أبو ذر زعيم غفار ، وصاحب الرأى الأول فيها ، يستشيرونه فى أمورهم ويحتكمون إليه فى مشاكلهم ، وكان أبو ذر يرحل إلى مكة بين الحين والحين ، للتجارة أو الحج ، أو لسماع الشعر فى سوق عكاظ ، ويمضى فى مكة أياماً ثم يعود ، فإذا خلا بنفسه تدور فى عقله خواطر : ما هذه الأحجار التى نصبتها قريش فى جوف الكعبة واتخذت منها آلهة أو قربى لله ؟ ما نفعها الذى يمكن أن تؤديه ؟ وما سرها الذى تنطوى عليه ؟ وهؤلاء رجال قريش ، إنهم أذكياء عقلاء ، كيف ساغ عندهم أن يصنعوا هذه الأصنام بأيديهم ، ثم يسجدوا لها بجباههم ، ويقولوا : إنها تقربهم إلى الله زلفى ! أهم على حق أم على ضلال ؟ وإذا كانوا على ضلال فيما أرى فما الحق فى الدين ؟ وهكذا يمضى أبو ذر فى خواطره وتساؤله ، ثم لا يلبث أن يشغل بمراعيه وإبله ، وشجره ونخيله ، ويشترك فى الأمور التى تشغل غيره من الناس .

وفى صيف أحد الأعوام نزل بغفار رجال من مكة ، فى طريقهم إلى الشام ، شأنهم فى كل عام ، وربطوا رواحلهم ، ونصبوا خيامهم ، وضمهم مع أبى ذر وأخيه أنيس ليل مقمر ، رق فيه النسم واعتدل . واحلولى الحديث وطاب السمر ، وأخذوا جميعا فى أفانين الكلام . . .

قال أبو ذر . هل من طريف جديد فى الأخبار ؟ إنكم أهل مكة ، ملتقى العرب وعاصمة الحجاز ومجمع العرب فى المواسم .

قال قائل منهم : قد والله تركنا مكة ، ولاشىء يشغل أذهان بنيها ، ويملأ سوامرها ونواديها أكثر من أمر محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ، لقد جاء فيها بدين جديد ، يزعم

أنه جاء به من السماء ، وأنه كلف إعلانه وتبليغه الناس ، يقول : إن هناك إلهاً واحداً لا يستحق العبادة غيره ، وأنه رسول هذا الإله إلى الناس كافة ، ومكث مدة يدعو إلى ذلك سراً ولا يفضى به إلا لخاصته وذوى قرباه .

فاستجاب له نفر قليل ، ولكنه فى هذا العام وقف على جبل أبى قبيس ، ودعا إليه علانية وجهاراً ، ولقى فى ذلك إيذاء ، ولقى أصحابه كيداً وتعذيباً . . .

قال أبو ذر — وقد أنصت بقلبه إلى هذا الحديث ، وكأنه هز نفسه هزاً عنيفاً : وهذه الأصنام التى تحيط بالكعبة ، وتملأ رحاب البيت الحرام ماحديث صاحب الدين الجديد عنها ؟ وما رأيه فيها ؟ قال الرجل : إنه قد دعا فى صراحة إلى تحطيمها ، ونبذها وجهل من يعبدها أو يتقرب بها ، بأقوال لم تعرفها العرب من قبل ، وجراءة جلبت له العداء . . . وسكت الرجل قليلا ثم عاد يقول : ولقد كنت أود لقاءه ، وأعرف عنه حقيقة دينه ، وأسمع شيئا من الكتاب الذى يزعم أنه جاء به من عند الله ، ولكننى — ولا أخفى عليكم من أمرى شيئا — خفت الكبار من رجال قريش ، خفت أبا لهب ، وأبا جهل ، وخفت غيرهما ، ممن وقفوا لمحمد موقف العداء ، وآذوا كل من يتصل به من قريب أو بعيد ، وكل من يؤمن بدعوته سرا أو علانية .

ثم انتقلوا إلى احاديث أخرى شرقوا فيها وغربوا ، وأقلوا وأكثروا ، حتى فرق بينهم النعاس . . .

ولم يكد يتنفس الصباح حتى دعا أبو ذر أخاه ، وقال له : يا أنيس ، لا يأتى عليك الغد حتى تكون فى مكة ، وأنظر إلى أمر هذا الرجل ، ولا تدخر جهدا فى معرفة حقيقة دعوته ، وعد بما ترى .

وغاب أنيس أياما وعاد يقول : لقد جاهدت يا أخى فى سبيل أن ألقى محمدا ، ولكنى فشلت فيما حاولت ، ومكة الآن لم أعرفها من قبل ، ورجال قريش يخشون أن يظهر أمره . أو يسمع العرب بدعوته ، فوقفوا جميعا يحاولون إطفاء دينه وإخفاء أمره ، وفى هذا السبيل أخذوا يؤذونه ويؤذون أصحابه ، ويمنعون الناس — وخاصة الغرباء — من لقائه ، وهو ما زال فى قلة من أنصاره ، ونفر قليل من رجاله . . على أنى سمعت من بعض أتباعه شيئا عن دينه الجديد ، أنه فوق مايدعو إليه من عبادة إله واحد ، يدعو إلى الخير والمعروف ، وينهى عن الشر والإيذاء ، ويحث على البر وإطعام الفقير والمسكين ، وسمعت منه كلاما ألقاه عليهم ، لم أسمع أحسن منه لفظا ، ولا أجمل أسلوبا ، هز مشاعرى وملأ صدرى روعة وإعجابا .

قال أبو ذر : أو هذا كل ما جئتنى به ؟ لا تسكن نفسى — والله — حتى ألقاه .

وتزود أبو ذر بطعامه ، وحمل قربة مائه ، ورحل إلى مكة ، وذهب إلى المسجد ، ولكنه لم يلق محمداً ، وخاف أن يسأل عنه فيصد أو يؤذى ، ثم أخذ يطوف مكة ودروبها وطرقاتها ، بعينين زائغتين ، ووجه حائر ، حتى أدركه المغيب ، فجلس وأسند ظهره إلى جدار المسجد ، ومر به على بن أبى طالب ، وتفرس وجهه وقامته ، فإذا هو رجل طويل أسمر نحيف ، لم يره من قبل ، فقال على : لعل الرجل غريب ؟ قال أبو ذر نعم . قال : هل لك أن تذهب معى إلى المنزل لأضيفك ؟ قال : جزيت خيراً وصحبه على إلى المنزل ، وأطعمه وحدثه ، ولكن واحداً لا يسأل الثانى عن شىء ، لم يسأله على جريا على عادة العرب ألا يسأل الرجل ضيفه إلا بعد ثلاثة أيام ، ولم يسأله أبو ذر خشية أن يكون صاحبه من رجال قريش ، وممن يكرهون أن يعرف أحد من العرب عن أمر محمد شيئا . . .

وفى صباح اليوم التالى خرج أبو ذر إلى المسجد ، وظل يطوف حوله ، وفى الطريق المؤدية إليه ، ولكنه لم يلق محمداً ، ولم يجترىء أن يسأل عنه أحداً ، حتى أدركه المغيب ، ونال منه التعب ، فجلس ، وأسند ظهره إلى جدار المسجد ، مجلسه الأول ، ومر به على بن أبى طالب ، فقال : هل للرجل أن يعرف منزله بالأمس ، قال أبو ذر نعم ، وجوزيت خيراً . . .

وفى الليلة الثالثة ، وقبل أن يأوى أبو ذر إلى فراشه ، قال على : ألا تخبرنى يا أخا العرب عن أمرك ، وما الذى أقدمك ؟ يخيل لى أنك صاحب حاجة ، وأنك ما جئت لمكة إلا فى مهم ، ولعلى معينك على ما قصدت . . .

قال أبو ذر : وكأنه أطمأن إلى على ، وأستروح بحديثه : إن اعطيتنى عهداً وميثاقا لترشدنى أخذتك ، قال على : قل ولا تخش شيئا ، قال : إنى قدمت إلى مكة لألقى صاحب الدين الجديد ، فقد سمعت عنه ما رغبنى فيه ، وقد علمت ما يدعو إليه من ترك الأصنام ونبذها ، وإن فى نفسى شيئا منها منذ زمن بعيد ، فإن كنت ممن تبعه فإنى أرجو أن تدلنى عليه ، وإن كنت ممن يخالفه ؟ فاكتم على أمرى . . . قال على : إنه محمد بن عبد الله وهو ابن عمى ، وقد آمنت به وصدقته ، والله إنه على حق فيما جاء به يعرف ذلك من دخل فى دينه ، واستمع إلى ما يتلوه من كتاب ، فإذا أصبحت فاتبعنى فإن رأيت شيئا أخافه عليك وقفت كأنى أصلح نعلى علامة لك أن تقف خلفى ، وإذا رأيتنى مضيت . فامض خلفى .

ولقى أبو ذر محمداً ، واستمع للقرآن ، وشرح الله صدره للإسلام ، ولكن رسول الله قال له : ارجع إلى قومك ، وادعهم إلى ما دعوتك إليه وترقب حتى يأتيك أمرى ، واحذر على نفسك من رجال قريش .

قال أبو ذر : والله لأحرضن بها فى مجامعهم ، وخرج حتى كان فى وسط مكة ونادى بأعلى صوته ، شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقاموا إليه وضربوه حتى أوجعوه .. فجاء إليهم العباس عم رسول الله : وقال : ويلكم ! ماذا دهاكم ! أما علمتم أنه سيد غفار ، وغفار طريق تجارتكم إلى الشام ؟ ونقذه منهم ؛ وذهب أبو ذر ودعا قومه للإسلام فآمنوا جميعهم ، وقطع طريق قريش فى تجارتها مع الشام.

ولكن قريشا ذهبت إلى محمد ، ورجته أن يدعو أبا ذر كيلا يقف دون تجارتهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كريما مسماحا ، فأرسل إلى أبى ذر ألا يقف دون تجارتهم ، وأن كلمة الله ستعلو ، ولا بد أن تخضع قريش بعد ذلك للإسلام وتدعن ، قريبا ذلك اليوم أو بعيداً .

وظل أبو ذر فى قومه حتى كانت هجرة رسول الله إلى المدينة ، فوفد عليه هناك وقومه ، فقربه الرسول وأدناه ، وكان عنده نعم الصاحب الكريم .